

بقلم

مصطفى لطفى المنفلوطى

الطبعة الثانية

فى أول شهر ابريل سنة ١٩٢٣

تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر

[illegible]

مصطفى لطفى المنفلوطى

الطبعة الثانيه

فى أول شهر ابريل سنة ١٩٢٣

تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف

الناس جميعاً، ثم نكبه الدهر نكبة عظمى ذهبت بماله وبزوجته فبكاهما ما شاء الله أن يفعل، ثم بكى حزنه كما تبكى الأحزان في قلوب الناس، ولم يجد بداً من أن يعيش لابنته « إيلين » يتولى تربيتها وإسعادها، والتحق بمصرف من المصارف المالية في ... يبذل جهده في خدمة العمل الذي وكل إليه حتى أصبح بعد مدة قصيرة وكيلا لذلك المصرف، فكان يعمل فيه ... نهاره ثم يعود ليلا إلى منزله فيرى ابنته منهوكة متضعضعة ... ما كانت تبذل من الجهد في خدمة المنزل ومباشرة شئونه. فرأى أن يتزوج ... عنها بعض متاعبها ... وكان سيئ الخطأ في اختياره فتزوج من امرأة ... لا هم لها في حياتها سوى ترفيه عيشها وتدليل ... و ... بها ... ، ولم ينتفع منها بشيء بل ... وثقل عيشه، ولكن ماذا يعمل وقد

وُضعت السلسلة فى عنقه وانتهى الأمر . وأصبحت ابنته بعد أن كانت سيدة بيتها وأميرة نفسها أسيرة فى يد امرأة قاسية دهية تسومها أنواع الخسف وصنوف العذاب ، فكانت تحتمل ذلك كله بصبر وجلد . وكانت تكتمه اباها كتماناً شديداً ضناً براحته وسكونه . بل كانت تكتم عنه علائق زوجته وصلاتها بمعارفها وأصدقائها رحمة به وإشفاقاً

وكثيراً ما كان يعود إلى منزله فى عصر أيامه حاملاً بعض [illegible] فى يده ليتمم فيها عملاً لدى محله الوقت عن إتمامه هناك فيجلس إلى مكتبه ساهراً ليله مكباً على عمله [illegible] النوم عن عينيه حتى [illegible] فينام فى مكانه [illegible] معلق [illegible] فى [illegible] زوجته بين جمع من أصدقائها وصديقاتها فى بعض الملاعب أو الحانات او المجتمعات [illegible] رقصة لاهية عابثة بجميع فضائل الانسانية ، وإذا استيقظت ابنته أثناء الليل ورأته على هذه الحالة مشت اليه برفق وهدوء وجلست على كرسى أمامه واجتذبت اليها الدفتر الذى بين يديه وأتمت فيه العمل من حيث قطعه ، ثم توقظه بعد ذلك لينام [illegible] فيشكر لها يدها ومعونتها ، ثم يسألها سؤال المتمرمر المتغص : أما تعد فلانة حتى الآن ؟ فتجيبه بالصمت أن لا ،

فيذهب الى سريره حاملا بين جنبيه من الهم والألم ماالله به عليم

وجملة القول أن الرجل كان شقياً منحوساً ، يسير من شئون حياته فى ظلمة داجية لاينتهى بصره فيها الى مدًى ، ولا يرى فى سمائها نجماً واحداً يتنوره إلا ذلك النجم الضئيل الذى كان يلمع من حين الى حين فى جبين ابنته الراحمة الشفوقة فيتنفس أمامه تنفس الراحة ويأذن لنفسه أن يبتسم فى ضوئه ابتسامة الغبطة والسرور

وانه لجالس ذات يوم فى غرفة مكتبه من المصرف إذ دعاه اليه مديره وسلمه ورقة مالية قيمتها خمسة آلاف فرنك ليودعها الخزينة ويسجلها فى دفتر المصرف ، فتناولها منه وعاد بها الى غرفته ووضعها على مكتبه وتناول الدفتر ليقيدها ، فما أمسك القلم بيده حتى دخل عليه بواب المصرف وقال له إن فتاة من هيئتها كيت وكيت واقفة بالباب تسأل عنك وهى تكتم اسمها وتأبى الدخول فاضطرب اضطراباً شديداً ومر بخاطره أنها إبنته وأن حادثا عظيما حدث بالمنزل دعاها الى الحضور إليه ، ولم يكن من شأنها أن تحضر اليه فى المصرف قبل اليوم . فترك كل شىء فى مكانه وخرج مسرعا اليها فإذا هى بعينها واقفة تحت جدار المصرف وقفة الخيىء والخجل وإذا بيدها كتاب تحمله اليه من

زوجته فاختطفه منها وقرأه فاذا هى تقول له فيه إنها تريد أن يرسل إليها فى هذه الساعة خمسة آلاف فرنك لتبتاع بها حلة جميلة رأتها فى حانوت بعض تجار الملابس وأنها إن فاتها أن تبتاعها اليوم فربما لاتجدها غداً ، فانفرجت شفتاه عن ابتسامة الغيظ والألم وأخذ ابنته ناحية وقال لها بلغيها أنى لا أملك هذا المبلغ اليوم ولا غداً وربما لاأستطيع ذلك الدهر كله . ثم ألقى عليها نظرة العاتب لحضورها اليه فى المصرف وكان لايحب ذلك منها ، فأطرقت برأسها ولم تقل شيئاً لأنها لاتستطيع أن تقول له إن زوجته هى التى أرغمتها على ذلك فتزيد همومه هما جديداً ، ثم عادت أدراجها

وكان بين عمال المصرف عامل سيء الأخلاق فاسد النفس والضمير مازال مذ دخل هذا المكان يرصد الغفلة من مديره أو وكيله علّه يتوصل إلى احتلاس شيء من المال لنفسه فدخل غرفة الوكيل فى اللحظة التى خرج فيها لمقابلة ابنته ليقدم اليه بعض الأوراق فلم يجده ولمح الورقة المالية التى تركها على المكتب فحدثته نفسه باحتلاسها فدار بنظره ههنا وههنا ثم انقض عليها ووضعها فى جيبه ثم خرج متسللا لم يشعر أحد بدخوله ولا بخروجه ، وما هى إلا لحظة حتى عاد المسيو « كاربنى »

وفى يده الكتاب الذى أرسلته اليه زوجته فمزقه بضع مزق وألقى به فى سلته ، ثم ألقى نظره على المكتب فلم ير الورقة المالية حيث تركها فذعر ذعراً شديداً وأخذ يفتش عنها فى كل مكان فلم يجدها فاشتد حزنه وهمه وأخذ يسأل العمال والخدم عمن دخل غرفته فى غيابه فلم يعترف له بذلك أحد ولم يشهد به أحد على أحد ، فظل يصرخ صرخات عظيمة تقيم المصرف وتقعده فسمع المدير الضوضاء فحضر ليرى ماذا حدث فأفضى اليه الرجل بالقصة كما هى لم يكتمه منها شيئاً إلا أنه . يشأ أن يخبره بموضوع الرسالة التى جاءت فيها ابنته ضناً بأسراره البيتية أن يعلمها أحد غيره ، فارتاب به الرجل بينه وبين نفسه ولم يكن يعتد عليه بسيئة قبل اليوم ولا يعرف له ماضياً مريباً ولكنه كان يعلم أنه فقير مقل فظن به الظنون ، وقديماً كان الفقر ينبوع التهم ومثار الشكوك والريب ، ثم تركه فى غرفته وخرج الى العمال والخدم يحادثهم فى هذا الشأن علّه يصل الى معرفة الحقيقة فأخبره البواب أن الفتاة التى حضرت اليه كانت تحمل فى يدها كتابا وأنه أخذها جانباً وأسر اليها حديثاً لم يسمع منه شيئاً ، فازداد شكه وارتيابه وعاد اليه فوجده واقفاً فى مكانه مذهولا يقلب كفيه فلم يقل له شيئاً وأخذ يدور بعينيه فى أنحاء الغرفة ويقلب بيده الأوراق

عله يعثر بذلك الكتاب الذى أخبر به البواب فلم يجده ، فألقى نظره على السلة فرأى تلك المزق فجمعها فاذا هى الكتاب الذى تريده فقرأه ثم ألقى على الرجل نظرة شزراء وقال له : إنى أتهمك يامسيو كاپرينى بأنك اختلست تلك الورقة وأرسلتها الى زوجتك مع ابنتك لتبتاع بها الحلة الجميلة التى أعجبتها،فدهش الرجل دهشة شديدة وورد عليه من الأمر ماطار بلبه وأخذ عليه أنفاسه ، فصمت لحظة وبعد لأى استطاع أن يقول له . نعم إنها أرسلت إلىّ هذا الكتاب ولكننى لم أحفل به ولم أرسل اليها شيئاً بل رددتها رداً قبيحاً لأنى رجل فقير لاأملك هذا المقدار ، ولأنى رجل شريف لاأختلسه ، فلم يحفل المسيو « لورين » بدفاعه ولم يرث لضراعته واسترحامه ، ولم يلبث أن رفع أمره الى النيابة فما أتى آخر النهار حتى كان الرجل فى السجن وكانت ابنته المسكينة فى حال من الهم والحزن تستثير الأشجان وتستذرف العبرات ، أما زوجته فلم يكن يهمها فى ذلك الموقف شىء سوى السعى للحصول على ثمن الحلة الجميلة من طريق غير هذا الطريق

لم ينفع الرجل دفاعه عن نفسه ولا دفاع ابنته عنه ولا شهادة الذين شهدوا بشرفه واستقامته من جيرانه وأصدقائه لأن المحققين لايستطيعون أن يصدقوا أن رجلا عظيما سريا مثل المسيو

« لورين » صاحب المصرف المشهور يكذب أن يلفق أو يخطئ في فراسته وتقديره ، وأن رجلا فقيراً مقلاً مثل المسيو كاربيني يتعفف عن اختلاس المال الذي يقع تحت يده متى وجد السبيل الى ذلك ، وكثيراً ماساقت أمثال هذه الاقيسة الفاسدة والنظرات الطائشة الحمقاء الابرياءَ والاشراف الى أعماق السجون وقضت عليهم وعلى عائلاتهم القضاء الاخير كما قضت على هذا الرجل المسكين اليوم ، فان قاضي التحقيق لم يلبث أن سمع شهادة خصمه عليه وعرف قصة الكتاب الذي أرسلته اليه زوجته حتى اقتنع باجرامه وأحاله على محكمة الجنايات

فاستطير عقل « إيلين » وجن جنونها فلم تجد بدًّا من أن تذهب الى المسيو لورين لتستعطفه لأبيها وتضرع اليه أن يساعدها على تبرئته ، فذهبت اليه في منزله فاستأذنت عليه ثم دخلت فدهش دهشة عظمى حين رأى أمامه فتاة رشيقة جميلة بل هي آية من آيات الحسن والجمال لاعيب فيها إلا أنها نحيلة صفراء متضعضعة وقد يكون الضعف عند بعض الناس حلية من حلى الجمال ، فافتتن بها حين رآها إلا أنه أخطأ في الحكم عليها كما أخطأ من قبل في الحكم على أبيها ، فظن أنه يستطيع أن يستثمر لنفسه ضرورتها وحاجتها ، فأخذ يحدثها في الشأن

الذى جاءت من أجله ثم ذهب معها فى الحديث مذاهب أخرى لم تفهم غرضه منها الا بعد حين لانها لم تألف سماع مثلها قبل اليوم ، فأخذ وجهها يربدّ شيئاً فشيئاً ثم انتفضت انتفاضة الليث فى غِيله والقت عليه نظرة هائلة لو ألقتها على رجل غيره لصُعق فى مكانه ولكنه كان رجلا وقاحا متبلداً فلم يحفل بنظرتها وتقدم نحوها وحاول أن يغلبها على أمرها فدافعت عن نفسها دفاعاً شديداً حتى عجزت فأرادت الفرار من بين يديه فاعترض طريقها فدارت بنظرها فى أنحاء الغرفة تتلمس سبيلا الى الخلاص فوقع نظرها على مسدس كان فوق مائدته فاختطفته لتهدده به فانطلقت منه رصاصة خطأ فأصابته فى ذراعه فصرخ صرخة عظمى ، وما هى إلا لحظات قلائل حتى قبض عليها وسيقت الى السجن بتهمة أنها دخلت على المسيو « لورين » فى منزله لتسأله أن يساعدها على تبرئة والدها فلم يحفل بها فأخرجت مسدساً كانت تخفيه فى طى ردائها وأطلقته عليه تريدقتله فلم تصبه إلا فى ذراعه

وقد كان فى استطاعة المسيو لورين أن يعترف بالحقيقة التى يعرفها حق المعرفة فلم يفعل ، ولو فعل لما ضره ذلك شيئاً ، وما هى إلا أيام قلائل حتى حكمت عليها محكمة الجنايات بالسجن خمس سنين ، وكانت قد حكمت على أبيها قبل ذلك بالسجن عامين



دخلت « إيلين » سجن النساء لتقضى فيه المدة المقدرة لها ووضعت فى غرفة مع امرأة عجوز ساقطة قضت جزءاً عظيما من حياتها فى هذا المكان المظلم القاتم حتى ألفته وجمدت نفسها عليه فلم تعد تحفل بشىء فى هذا العالم ولا تفكر إلا فى الساعة التى يقدم فيها اليها الطعام فتلتهمه التهاماً بشره ولهفة وهى تضحك وتتغنى كأنما هى أبعد الناس عن الهموم والأحزان ، فذعرت إيلين حين رأتها ذعراً شديداً وانسلت الى زاوية من زوايا الغرفة فقبعت فيها واستسلمت لهمومها وأحزانها ، ولم تدع قطرة من الدمع فى عينيها إلا ذرفتها وأبت أن تتناول الطعام الذى قدمه اليها السجان فوضعه بين يديها وتركها وشأنها ، فبكت ماشاء الله أن تفعل حتى هدأ بعض مابها فعمدت الى كتاب صغير من كتب الأخلاق كانت لاتزال تحمله فى جيبها ماتفارقه فأخرجته وأخذت تتلهى بتقليب صفحاته فكان أول ماوقع نظرها عليه من كلماته هذه الكلمة « العفو أشد أنواع الانتقام » فانتفضت عند قراءتها انتفاضاً شديداً وعلق نظرها بها ماينتقل عنها ،

وأخذت تراجع الحوادث التى مرت بها وتستعرضها واحدة بعد أخرى وتفكر فى المظالم التى نالتها ونالت أباها وما اقترفا ذنباً ولا جنيا على أحد حتى أوردتهما هذا المورد من الشقاء، فشعرت بدبيب الشر فى نفسها للمرة الأولى فى حياتها وظلت تقول فى نفسها : إن الذين مرت على ألسنتهم أمثال هذه الكلمات انما كانوا يعيشون فى عصر غير هذا العصر وبين أناس غير هؤلاء الناس ، ولو أنهم عاشوا بيننا لكان لهم فى العفو وأهليه رأى غير هذا الرأى ولما اجترأوا على المجازفة بتدوين هذه الأفكار فى كتبهم ، لأن العفو لا يكون انتقاماً إلا من أصحاب الضمائر الطيبة الطاهرة التى يقلقها الذنب ويمحاها العفو والتى تصدر عنها سيآتها زلات وهفوات ، أما الضمائر القاسية المتحجرة التى لا تعبأ بشىء ولا تخجل من شىء فلا يزيدها العفو والصفح إلا تمرداً وطغيانا

وإنها لذاهبة هذه المذاهب المختلفة من خواطرها وأفكارها إذ دنت منها جارتها العجوز تختلس الخطى إليها اختلاساً حتى وقفت وراءها ونظرت فى الصفحة التى تنظر فيها فوقع نظرها على تلك الكلمة التى كانت تنعم النظر فيها فقهقهت ضاحكة بصوت عال غريب فارتعدت « إيلين » والتفتت وراءها صارخة: ماذا تريدين ياسيدتى ؟ قالت لا تخافى يابنيتى ولا تراعى فما أنا بمجنونة

كما ظننت وكما يظن سكان هذه الدار ولكنني رأيتك مستغرقة في هذا الكتاب لاترفعين نظرك عنه فجئت لأقول لك : دعي الكتب وشأنها لاتحفلي بها ولا تعولي على شيء مما فيها ، فان أصحابها الذين وضعوها غرباء عن هذا العالم لايفهمون من شؤونه شيئاً إلا كما نفهم نحن من شؤون عالم الجن أو سكان المريخ ، بل هم قوم معتوهون ممروررون قضوا أيام حياتهم في معتزلاتهم الخاصة المملة التي لاتوجد فيها نافذة واحدة تشرف على العالم وما فيه فملوا وسئموا. وأرادوا أن يروحوا عن أنفسهم ويتلهوا بما يسري عنهم مللهم وسآمتهم ، فأخذوا يدونون هده المبادىء التي انتزعوها من جوانب أدمغتهم . لامن طبيعة المجتمع الذي يحيط بهم ، ويقررون الآراء التي يستحسنونها ويعجبون بها لا التي تتفق مع طبيعة الكون ومزاجه ، فهم ينصحون المجرم أن يقلع عن إجرامه ثم يخيل اليهم أنه قد أقلع ونزع فيطلبون الى من أجرم اليه أن يعفو اليه قائلين له « أن العفو أشد أنواع الانتقام » كأن الفضيلة عندهم هي الحالة الاساسية للنفوس، وكأن الاجرام عرض من أعراضها الطارئة عليها لاتلبث أن تهب عليه نسمة من نسمات العظة والاعتبار حتى تذهب به ، فما أسخف عقولهم وما أقصر أنظارهم وما أبعدهم عن فهم حقائق الحياة وطبائع

النفوس ، دعى الكتب يابنيتى لاتنظرى فيها ، وانزعى عنك همومك وأحزانك ، وكلى الطعام الذى يقدّم إليك هادئة مغتبطة لاتلوين على شيء مما وراءك ، فسيأتى قريباً أو بعيداً ذلك اليوم الذى يُفتح لك فيه هذا الباب الموصد دونك فتخرجين الى الانتقام من الرجل الذى أساء إليك وساقك الى هذا المكان وتنالين منه فوق مانال منك كما سأفعل أنا يوم خروجى بالرجل الذى ساءنى وأفسد علىّ حياتى ، فليس العفو أشد أنواع الانتقام كما يقولون بل الانتقام أعظم ملذات الحياة

فهدأت نفس بلين قليلا واستطاعت أن تتناول شيئاً من الطعام الذى قدم اليها ، إلا أنها كانت اذا جاء الليل رأت أباها فى منامها يقاسى أنواع العذاب وصنوف الآلام فى سجنه فتصبح باكية نادبة لايهوّن عليها آلامها بعض التهوين الا ثرثرةُ تلك العجوز وهذيانها حتى نامت ذات ليلة فرأته ميتاً على سرير من أسرّة مستشفى السجن تحيط بجثته شمعتان مشتعلتان فاستيقظت فزعة مذعورة تبكى وتنتحب ، وماهى إلا هنيهة حتى دخل عليها السجان يدعوها لمقابلة مدير السجن فذهبت اليه فأبلغها أن أباها توفى الليلة فى المستشفى فصعقت صعقة كادت تذهب بنفسها ، ثم استفاقت فاذا هى فى غرفة سجنها وإذا هى أشد عباد الله بؤساً وأعظمهم شقاء

٣

قضت « إيلين » سنواتها الخمس فى سجنها ثم خرجت ورفيقتها العجوز تشيعها إلى الباب وتقول لها لاتنسى يابنيّتى أن تنتقمى من عدوك الذى أساء اليك وتنكلى به تنكيلا عظيما ، وسأتبعك على الأثر عما قريب لأنتقم من عدوى مثلك ، وهل لمثلى ومثلك فى هذه الحياة الشقية البائسة لذة غير لذة الانتقام !

فودعتها وانصرفت لاتعلم أين تذهب ولاأى طريق تسلك، بل لاتعلم أين تجد قوت يومها أو المضجع الذى تأوى إليه سواد ليلتها فقد انقطعت صلتها بالعالم كله بعد موت أبويها ووُسم جبينها بلقب « المجرمة » لدى خرجت به من سجنها

ولم تزل سائرة ساعات طويلة حتى شعرت بالتعب وأحسّت بالجوع يعبث بأحشائها فحدثتها نفسها بالانتحار فراراً من الألم وزهداً فى الحياة وظلت تترجّح ساعة بين الأنس بهذ الخاطر والنفور منه حتى غلبها على أمرها فأخذت طريقها إلى النهر وكانت الليلة داجية مكفهرة تلمع بروقها وتهطل عيومها وتدمدم رعودها وتعصف رياحها فاستمرت أدراجها حتى اذا لم يبق بينها

وبين النهر إلا بضع خطوات سمعت قعقعة مركبةٍ مقبلة نحوها من بعيد يمزق نور مصباحيها المشتعلين أحشاء الظلمات فتريثت هنيهة فى مكانها حتى مرت المركبة بها فاذا المسيو «لورين» جالساً بين بضع فتيات خليعات يعابثهن ويداعبهن ويقهقه قهقهة عالية ترن فى أجواز الفضاء فاختبأت وراء شجرة حتى مر ثم برزت من مخبئها تحدث نفسها وتقول : هاهو المجرم سعيد فى حياته مغتبط بعيشه يتقلب فى أعطاف العيش ناعماً لاينغص عليه عيشه منغص ولا يكدر حياته مكدر ، وهاأنذا البريئة الطاهرة التى لم ألوث يدى فى حياتى بجريمة ولم أقترف بينى وبين ضميرى إثماً أهيم فى هذا الوادى الفسيح على وجهى لاأعرف لى ملجأ ولا مأوى ، ولا أعرف سبيلا للعيش ولا مذهباً ولو عرفت لمااستطعت أن أنتفع بمعرفتى ، لأننى مجرمة قاتلة ، ومن ذا يأمن على نفسه أن يتصل بالقتلة المجرمين أو يعطف على بأسائهم وضرائهم !

لالا ، لابد أن أعيش ولا بد أن أنتقم ، وما دامت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية قد عجزت عن أن تنتصف للناس من الناس فلينتصف الناس بأنفسهم لأنفسهم

وانحدرت من طريق النهر إلى طريق المدينة وقد ودّعت في تلك اللحظة جميع خواطر الخير التى ملأت فضاء نفسها طول حياتها وخلعت ذلك الثوب الجميل المتلألئ الذى لبسته مذ برزت إلى الوجود حتى اليوم — ثوب الشرف والكرامة والطهارة والأدب — واستحالت نفسها الطاهرة الكريمة إلى نفس أخرى غيرها لاصلة بينها وبينها ، فلم ينحدر برقع الظلام عن وجه الصباح حتى رآها الناس سائرة مع أحد العمال المريبين هادئة ساكنة باسمة متطلقة لم يبق فى وجهها من دم الحياء إلا بضع قطرات قد أخذ لونها يستحيل شيئاً فشيئاً الى لون البياض لتلحق باخواتها

٤

وكذلك هوت تلك الفتاة المسكينة البائسة فى تلك الهوة التى حفرها المجتمع الانسانى لأمثالها من الفتيات البائسات ، فظلت تنتقل من يد إلى يد ومن مضجع إلى مضجع ، وكأنَّ الحظ الذى فارقها وتجهَّم لها فى حياة الطهارة والعفة أقبل عليها بوجهه الباسم المتهلّل فى حياة السقوط والفساد ، فما هى إلا أيام قلائل حتى طلعت فى سماء باريس نجماً ساطعاً متلألئاً تنير كل أفق تشرق فيه وتعطّر كل أرض تخطر بأرجائها وتعبث بألباب الرجل عبث النسائم بأوراق الأشجار

فانها لجالسة ذات ليلة فى مقصورة من مقاصير بعض الملاعب التمثيلية فى جمع من أصدقائها المستهترين بها إذ وقع نظرها على خصمها المسيو « لورين » جالساً فى المقصورة المقابلة لها مع إحدى خليلاته فانتفضت حين رأته وثارت فى نفسها ثائرة الغيظ والحنق وظلت تردد النظر فى وجهه طويلا فلمحها وهى تنظر

إليه فأعجبه منظرها البارع الجميل إلا أنه لم يعرفها فقد تغير كل شئ فيها حتى ملامحها وشمائلها . فلما انتهى الفصل الأول من الرواية حتى نهض من مكانه مسرعاً وذهب يرودحول مقصورتها حتى التقى بأحد أصدقائه وأصدقائها فى دهليز المقاصير فسأله عنها فأخبره أنها السيدة « لوسى » المارسيلية أجمل فتاة وفدت إلى باريس فى هذا العام . فتوسل إليه أن يقدمه إليها ففعل فأحسنت ملتقاه وقد أضمرت له فى نفسها شرّ مايضمر عدو لعدوّه وأقبلت عليه تحدثه وتلطف به وتمد له الحبالة التى اعتادت أن تمدها كل يوم لأمثاله ، فما لبث أن وقعت من نفسه وملكت عليه جميع مشاعره ، ثم رُفع الستار فاستأذنها وعاد إلى مقصورته وقد حلت من قلبه محلا لم يحله أحد من قلبها

وفى صباح اليوم الثانى أرسل إليها مع بعض رسله طاقة جميلة من الزهر قد دس بين أوراقها عقداً بديعاً من اللؤلؤ الثمين فابتهجت به حين رأته لا لأنها فى حاجة إلى العقود والدمالج بل لأنها علمت أنها قد وضعت يدها على الزمام الذى تقوده به إلى الهلاك ، ثم زارها على الأثر وخرّ جاثياً تحت قدميها مقدماً لها قلبه وحياته وكلّ ماتملك يده أى أنه جثا تحت قدمى تلك الفتاة

المسكينة التي جثت تحت قدميه منذ سنوات تسأله أن يساعدها على فكاك أبيها من سجنه وتضرع إليه أن يغفر له ذنبه إليه إن كان يعتقد أنه مذنب فلم يفعل . ولو أنه فعل لابتاع بثمن قليل لايوازى ربع ثمن العقد الذى يقدمه الآن إليها قلباً طاهراً نقياً لم تلوثه الذنوب والآثام ولم تعبث به الأهواء والشهوات وعاش عيشاً طاهراً شريفاً مع خير الزوجات وأفضلهن خَلقاً وخُلقاً ، ولكن هكذا قدر لهؤلاء القوم الضعفاء أن يضنوا بالنزر اليسير من أموالهم على ابتياع القلوب الشريفة الطاهرة ! فاذا لوثتها الذنوب والآثام وأصبحت نهباً مقسما فى أيدى الشهوات بذلوا فى سبيل الوصول إليها جميع ماتملك أيديهم حتى شرفهم وحياتهم ، فقد ابتاع المسيو « لورين » لخليلته الجديدة قصراً جميلا أثثه أثاثاً حسناً ونزل على حكمها فى كل ماتريد وتشتهى حتى أنفق عليها فى عام واحد كل ماتملك يمينه ، ثم اضطر أن يعبث بودائع الناس المودعة فى مصرفه فمشى فى ذلك المزلق المنحدر مدًى بعيداً أشرف منه على الخطر العظيم

وحدث أن فتحت سوق للاحسان فى باريس وكانت « لوسى » إحدى النساء اللواتى وقع عليهن الاختيار لبيع الأزهار فيها ،

وكان تجار تلك السوق أجمل نساء باريس على الاطلاق ، فجلست في حانوتها المعدّ لها وقد أمسكت بيدها زهرة جميلة تعرضها للبيع وتعد من يبتاعها أن يتناولها بفمه من فمها ، فازدحم حولها كثير من الأغنياء يتزايدون في ثمن تلك الزهرة حتى برز رجل من بينهم اسمه الكونت مارسيال فعرض فيها خمسمائة فرنك ، فقالت لا أبيعها إلا بألف ، فأمسك الكونت وأمسك الناس جميعاً ، وأنهم لكذلك إذا بالمسيو « لورين » يتقدم بهدوء وسكون وفي يده ورقة بألف فرنك فوضعها بين يدي لوسي وقال لها لا يبتاع منك زهرتك ياسيدتي أحد سواي ، فوضعتها بين ثناياها فتناولها منها بفمه بأسلوب رقيق حسده عليه مزاحموه جميعاً وخاصةً الكونت مارسيال ، فقد انصرف من موقفه هذا وهو يقول : ما رأيت في حياتي صاحب مصرف يذهب في حياته هذا المذهب من لبذخ ولاسراف ويبعثر المال بلا حيطة ولا حذر كهذا الرجل ، وما أحسبُ أن ثروته الخاصة تتسع لكل هذا فلا بد أن يكون لصاً دنيئاً يسرق ودائع الناس ويبددها ، فويل للمساهمين في مصرفه ورحمة الله على أموالهم جميعاً ، وكان يتكلم بصوت عال يسمعه

الناس جميعهم ، وليس بين الأحاديث حديثٌ أسيرَ ولا أذيعَ من حديث السوء ، فشت كلماته فى المجتمعات العامة والخاصة فاضطرب لها المساهمون وأصحاب الودائع اضطراباً عظيما ووصل الخبر إلى أعضاء مجلس إدارة المصرف فهالهم الأمر وأشفقوا على سمعة مصرفهم أن تنال منها هذه الأراجيف فيسقط سقطة لاقيام له من بعدها فقرروا الاجتماع فى يوم معين لمراجعة حسابه وتفقد أمواله ، فلما علم ذلك المسيو لورين أخذ يزوّر فى السندات ويعبث بدفاتر الحساب طلباً للخلاص من التبعة فلم يجده ذلك شيئاً ، فقد فهم مجلس الادارة كل شىء فلم ير بداً من أن يرفع الأمر إلى القضاء ففعل والمسيو لورين مستغرق فى شهواته ولذاته جاث ليله ونهاره تحت قدمى خايلته لايشعر بشىء مما يجرى حوله لولا أن أحد أصدقائه من المحامين وقف على الخبر فزاره فى منزله ليخبره به فلم يجده فذهب إلى منزل لوسى فوجده فأخبره أن الامر قد صدر بالقبض عليه وأنه إن لم يبادر بالسفر فى الحال فقد هلك إلى الابد ، فأشار إلى « لوسى » أن تعد له حقيبة ملابسه وأن تهيئ نفسها للسفر معه وهو

أعظم الناس ثقة بها وبحبها وإخلاصها ، فتظاهرت بالاذعان لامره والرثاء لحاله ولكنها لم تلبث أن خرجت من الغرفة حتى هرعت إلى غرفة « التليفون » وبلغت رئيس الشرطة خبر عزمه على الهرب وأشارت عليه بارسال من يقبض عليه فى الحال ، ثم أمرت الخدم بغلق الابواب والوقوف فى وجهه إن أراد الفرار ، ثم عادت إليه فسألها هل أعدت كل شيء فنظرت إليه نظرة غريبة لم يفهم معناها ثم انفجرت ضاحكة فدُهش وسألها ما بالها ؛ فقالت لاشيء سوى أنك ستبقى سجيناً هنا حتى يأتى رئيس الشرطة للقبض عليك ثم ألقت عليه نظرة مخيفة هائلة فعجب لامرها ولم يعلم أمازحة هى أم نزل بها عارض من عوارض الجنون ، ونهض من مكانه مسرعا ودنا منها وقال لها ماذا عرض لك يالوسى ، فقد طلبت اليك أن تهيء نفسك للسفر معى فهل فعلت ؟ فقد أزف الوقت ولسنا الآن فى موقف مزاح ، وأخاف أن تفاجئنا الشرطة الساعة فتفوت الفرصة ، فضحكت ضحكة أخرى وقالت قد بلغ رئيس الشرطة أنك عازم على السفر وأشرت عليه أن يبادر بارسال الجنود إليك ،

وقد أمرت الخدم بغلق الابواب دونك حتى لا تتمكن من الهرب قبل حضورهم ، فجن جنونه وقد بدأ الريب يدب فى نفسه وان لم يفهم لما يرى سبباً فركض إلى الباب ليتحقق الأمر بنفسه فوجده مغلقاً فأمرها أن تفتحه فأبت فهجم عليها هجمة شديدة وهو يصيح : أين المفتاح أيتها العاهر ؟ فقالت : أتريد أن تقتلنى كما قتلت أبى بالأمس ؟ فلم يفهم معنى كلمتها ووقف فى مكانه ذاهلا يقول لها لم أفهم من أمرك شيئاً ماذا تريدين ؟ ومن هو أبوك ؟ قالت هو المسيو كاپرينى وكيل مصرفك بالأمس الذى أتهمته ظلماً وعدواناً بالسرقة وأنت تعلم أنه رجل شريف مستقيم لو علم أن شرب الماء يفسد مروءته ما شربه ، فكانت نهاية أمره أن مات فى سجنه ميتة الأشقياء البؤساء لا يعوده من أهله عائد ، ولا يحتضنه إلى صدره فى ساعته الأخيرة محتضن . ولا يوجد بجانب مضجعه من يسمع منه آخر كلماته

فاصفر وجه لوربن وظل جسمه يرتعد ارتعاداً شديداً وأخذ يحدّق النظر فى وجهها ويتراجع شيئاً فشيئاً ويقول بصوت مضطرب متقطع إذن أنت لستِ . . . فقاطعته وقالت نعم لست

حبيبتك « لوسى » كما تعتقد بل عدوتك « إيلين » التى تريد أن تنتقم منك لفجيعتها فى أبيها وفى نفسها ، أنا إيلين التى جثت تحت قدميك منـذ ستة أعوام تسألك أن ترحم أباها وترحمها فأبيت إلا أن تساومها فى عرضها فلما ضنّت به عليه أردت النكاية بها فاتهمتها بتهمة القتل كذباً وافتراء كما صنعت بأبيها من قبلها فصدق القضاة الاغبياء دعواك فحكموا عليها بالسجن خمس سنوات كابدت فيها من صنوف العذاب وأنواع الآلام مالا يستطيع أن يحتمله بشر ، ثم خرجت من سجنها مصفرة اليد من كل شئ فى العالم ، من بيتها وأهلها وكرامتها وشرفها وكل ما تملك يدها ، حتى من القوت الذى تقيم به صلبها بياض يومها وسواد ليلها ، وكان لابد لها من المغامرة بنفسها فى إحدى الهوتين ، إما هوة الموت لترتاح من هموم الحياة وآلامها ، أوهوة الفساد لتنتقم لنفسها من عدوها الذى نكبها وأفسد عليها حياتها ، فآثرت الانتقام على الموت ، لأن نفسها الطاهرة الطيبة قد استحالت إلى نفس شريرة حاقدة لا تريد أن تسمح لعدوها أن يبنى سعادته على انقاض شقائها وأن يفلت من العقوبة التى هى النتيجة الطبيعية لجميع الذنوب والآثام ، وهاهى قد انتقمت

لنفسها وروّحت عنها همومَها وآلامها

فنكس رأسه ملياً ثم رفعه وقال إذاً ما أحببتنى قط يالوسى ؟

قالت نعم ، بل ما اتصلتُ بك إلا لأسوقك إلى هذا المصير الذى صرت اليه اليوم ، أنت الآن متألم جداً ، بل لا يوجد فى العالم كله ألم مثل الألم الذى يعتلج فى أعماق نفسك ، لأنك فقدت فى يوم واحد شرفك وكرامتك ومالك وحريتك وموضوع حبك ووجهة آمالك فى حياتك ، وهذا ما كنت أريده وأرجوه ، وهذه هى الساعة الوحيدة التى شعرت فيها بلذة العيش وهنائه من بين جميع ساعات حياتى

فنظر اليها نظرة متضعضعة دامعة وقال : ما كنت لأحفل بخسران شيء فى الحياة لو أننى ربحتك يالوسى ، أمّا وقد أصبحت يدى صفراً منك فلا خير فى العيش من بعدك ، ثم تهافت على مقعد بجانبه وانفجر باكيا ما تهدأ دموعه ولا يفتر نشيجه حتى حضر الجند فاعتقلوه وساقوه الى سجنه وهو صامت واجم لا يرفع طرفه ولا يلتفت وراءه وإيلين تشيعه بنظرات السرور والاغتباط حتى انقطع أثره

٥

نعم ان الانتقام لذيذ جداً كما يقولون ، ولكنه اللذة التى يعقبها الندم والأسف وتأتى على أثرها الحسرات والآلام وما استطاع منتقم قط أن يزن عمله بميزان العدل والحكمة فتهدأ نفسه ويستريح ضميره بعد فراغه من انتقامه كما تهدأ نفس القاضي العادل بعد صدور حكمه بالعقوبة التى يراها . والفرق بينهما أن القاضىَ يصدر فى رأيه عن نفس هادئة مطمئنة مستمسكة قادرة على الروية والأناة والمقارنه والمقابلة والوزن والتقدير ، والمنتقمَ يصدر فى عمله عن روح هائجة محتمدة لاهمّ لها إلا أن تلتهم وتستأصل وتأتى على كل ما تستطيع الأتيان عليه ، فهو يقضى قضاءه لا ليعاقب المجرم على جريته ، ولا ليدفع عن المجتمع شروره وآثامه . بل ليجرح نفسه ويؤلمها وينال منها أقصى مايرى أنه كاف لشفاء حقده واطفاء غلّته ، فيجازى على الشتم بالضرب ، وعلى الضرب بالقتل وعلى القتل بالتشويه والتمثيل ، ولا يأبى أن يأخذ البرىء بذنب المجرم ، والجار بذنب الجار ، فالانتقام جريمة

كيفما كان الباعث عليه والدافع له ، وكل جريمة تترك فى نفس صاحبها نصيبا من الالم والحسرة بمقدارها ، مامن ذلك بدّ ، ولقد صدق الذى يقول إن العفو مرارة الساعة ثم السعادة إلى الابد وإن الانتقام لذة ساعة ثم الشقاء الدائم الذى لايفنى

عادت إيلين إلى غرفتها بعد ذهاب « لورن » وكان الليل قد أظلها فجلست تراجع فهرس حياتها الماضية وتقلب صفحاتها صفحة صفحة فشعرت بدبيب السآمة والملال فى نفسها وخيل إليها أنها ستعيش بعد اليوم عيشة تافهة مملولةَ لاطعم لها ولا لذة فيها ، ورأت كأن سحابة سوداء من شقاء الحياة وبؤسها تدنو منها شيئاً فشيئاً ، وأخذت تسائل نفسها هل أصابت فيما فعلت أم أخطأت ، وهل سعدت بالانتقام أم شقيت ؟ وهل كان خيراً لها أن تلقى بنفسها فى عباب الماء عند ما فكرت فى ذلك يوم خروجها من سجنها ؟ أم تعيشَ لتضحى عرضها وشرفها وكرامتها فى سبيل انتقامها ؟ وهل خرجت من المعركة التى خاضتها ظافرة تمام الظفر ؟ أم نالها من الخسران فيها ما يذهب ببهاء ذلك الانتصار الذى انتصرته ؟

ولم تزل تسائل نفسها هذه الأسئلة فلا تسمع جواباً يرضيها

حتى مضى الليل إلا أقله فحاولت أن تأوى إلى مضجعها فلم تستطع ، وأن تسرّى عن نفسها بعضَ همومها فأعجزها ما أرادت، فلم تنقضِ دولة الظلام حتى كانت قد حكمت بنفسها على نفسها أنها مجرمة آثمة ، وأنها لم تستفد شيئاً من كل ما عملت سوى أنها باعت عرضها بأبخس الأثمان وأدناها ، وأنها لم تسيء إلى الرجل الذي أرادت الانتقام منه بقدر ما أساءت إلى نفسها ، فعزمت على الالتحاق بأحد المستشفيات الخيرية لتكفر عن ذنبها بخدمة المرضى ومواساتهم طول حياتها حتى يوافيها أجلها

٦

دخلت المستشفى وأخلصت إلى الله فى عملها فسهرت على المرضى وأحسنت مواساتهم وبذلت فى ذلك من الجهد ما يعجز غيرها عنه حتى أصبحت مضرب المثل فى صلاحها وتقواها ورحمتها وإحسانها

وكانت المحكمة قد حكمت على المسيو لورين بالسجن عامين فلقى فى سجنه من المتاعب والآلام مالا طاقة لمثله باحتماله فسقط مريضاً لا يحفل به أحد ولا يواسيه مواس حتى اشتد به المرض وأشرف على الهلاك فنقلوه إلى المستشفى التى كانت تمرّض فيها « إيلين » فعرفته حين رأته رغم تغير صورته واستحالة حالته فلم تستطع أن تملك عينيها من البكاء ثم حنَت عليه وأخذت نفسها بتمريضه والعناية به وهو ذاهل مستغرق لا يشعر بشىء مما حوله حتى استفاق فى بعض الأيام فرآها واقفة بجانب سريره تمد اليه يدها بالدواء فظل يحدق النظر

فى وجهها طويلا حتى عرفها فتناهض من مكانه وأكبّ على يدها يقبلها ويسألها العفو عن ذنبه إليها فازداد نشيجها وبكاؤها وقالت له إننى أنا التى أسأت اليك وأنا التى أطلب منك العفو والصفح ، وكأن حياتها الجديدة التى انتقلت إليها حياة الصلاح والبر قد أنستها حياتها الأولى وأكاذيبها وأباطيلها فلم يبق فى قلبها أثر للبغض ولا للحقد ، وأصبحت سريرتها سريرة بيضاء نقية لا تجول فيها غير خواطر الخير والاحسان ولا تنطوى على غير حب الانسانية وحب الله

وكذلك ظللت تعالج هذا المسكين باخلاص لا تضمر مثله الأم لواحدها وتقوم على خدمته ليلها ونهارها ما تهدأ ولا تفتر ولكن الداء كان قد تمكن منه فلم يغن عنه العلاج شيئاً وما هى إلا أيام قلائل حتى حضره الموت فجلست بجانبه تعزيه وتواسيه وتلقى فى نفسه أن الله قد غفر له جميع سيئاته فى حياته بما كابد فيها من العلل والأسقام والهموم والآلام وأن جوار الله فى دار جزئه خير له من جوار هذه الحياة الباطلة الفانية حتى أسلم روحه بين ذراعيها

وفى صباح اليوم الثانى رآها الناس سائرة بهدوء وسكون

في طريق الدير وقد لبست مسوحها وسوادها وعلقت صليبها على صدرها حتى بلغته ففتح بين يديها بابه العظيم الذي لا يخرج منه داخله الى الابد فدخلته وكان ذلك آخر عهدها بالعالم وما فيه

